فلسفة السخر في شعر ابن الرومي

الدكتور عبد الفتاح نافع
أستاذ مشارك بجامعة اليرموك
قسم اللغة العربية

أدرك ابن الرومي ،الشاعر العباسي ،أهمية الفكاهة في الشعر وما يمكن أن تقدمه من وظائف إلى جانب وظيفتها الأساسية في إثارة المتعة والدهشة . فاستخدم السخرية سلاحاً في وجه الفساد السياسي والاقتصادي والاجتماعي في القرن الثالث الهجري . ووظف شعره للحديث عن تسلط الحكم المسؤولين ، وللحديث عن سيطرة النظام الطبقي وما نجم عن ذلك من فقر وتخلف ومظاهر زائفة وعيوب اجتماعية خطيرة ، جاعلاً من السخرية وسيلة لتطهير المجتمع العباسي مما فيه من مثالب . وتكمن عظمة ابن الرومي في كونه تجاوز أحاسيسه وانفعالاته إلى تحليل هيمر الانسان في الوجود ، فمعانيه حوادث خارجية تعبر عن حالات نفسية داخلية ، وصوره الساخرة مظهر من رؤيته للحياة والوجود ، مما جعله شاعراً متميزاً بين شعراء السخرية الذين اقتصروا على الصور والمعاني الكلاسيكية .

واذا كان ابن الرومي لم يستطع أن يشكل مذهباً فلسفياً واضح المعالم في شعره الساخر ، فإنه قدم فكرة عن الحياة ، بخيرها وشرها . وصفحتها السوداء الغامضة التي فتحها لاتقل فتنةً وصواباً عن صفحتها الواضحة البيضاء التي ينشرها الفلاسفة والعلماء .

اذا كان من أغراض الدعابة والفكاهة والتهكم في الأدب أن تبعث الضحك في النفوس فتثير فيها شيئا من المتعة والاسترخاء والدهشة والاثارة ،فان هذا ليس غرضها الأساسي الذي لاغرض وراءه . حقا ان هذه الالوان في الادب تفرّج عن النفوس المكبوتة فتساعد في شفاء وكشف الهموم ،ولكن النشوة التي تحدثها ،ليس الهدف الذي يقصده الأديب أو الشاعر الساخر . بل هو يتخذ من هذا الأسلوب وسيلة فاعلة لتحقيق مثل أعلى ينشده ،ويسعى الى تحقيقه وترسيخه في النفوس ،سواء أكان هذا المثال على الصعيد السياسي او الاجتماعي أو أي صعيد آخر.

فهو حين يتهكم يربط ما بين الأشياء والأمور الواقعة ،وما ينبغي ان تكون عليه من مثل الكمال ،فيقابل الواقع على مافيه من تخلف أو فساد أو نقص بالكمال الذي يراه الهدف والغاية (١) . فالغرض الرئيسي للفكاهة هو التقويم والتهذيب والاصلاح ،بنقد أنواع من النقص أو القبح أو الخروج عن المألوف . ومن ثم تكتسب الفكاهة وظيفة اجتماعية عظيمة الاثر ، باعتبارها وسيلة فعالة لتحقيق ضرب من التغير الاجتماعي (٢) . فهي تقوم بوظيفة المصحح الاجتماعي ،تعمل على صيانة الاستقرار الفكري والاتحاد العاطفي في المجتمع الواحد ضد شتى عوامل

التنافر أو المفارقة أو الابتداع أو الإغراب ،وهذا يقود الى تقوية الروح الجماعية والتعاطف الجمعي بين أفراد الجماعة [٣] وهي ضرب من القصاص الخفيف ، حيث هي سيف مصلت تسلطه الجماعة على رقاب الخارجين على معاييرها الجمعية وأعرافها العامة ، وكل من تحدثه نفسه بالخروج على قوانين الجماعة وأساليب سلوكها ، ليرتد من جديد الى حظيرتها [٤] .

والى جانب هذه الوظيفة الاجتماعية فان الفكاهة ذات خدمة اجتماعية كبرى للمجتمع في أموره السياسية . فكثير من الشعراء الساخرين يمثلون الطبقة الكادحة ، وما هي عليه من تعاسة وبؤس . فيختصمون الحكام ، ويخرجون عليهم من أجل طبقات الشعب الكادحة ،وهم في شعرهم الساخر هنا يرمزون الى ظلم ، وينتقدون سياسة ، فيخففون عن أنفسهم وعن غيرهم أعباء الحكم وأثقال الحياة ،ويجد الآخرون في شعرهم ما يسليهم عن همومهم وأخطار حياتهم [٥] .

وقد عرف نقاد العرب ما لهذا الفن من أثر في النفوس ، فاعتمدوه في كتاباتهم وفي نقدهم ، ورأوا فيه وسيلة فاعلة ذات تأثير بعيد في تطهير النفس والسمو بها . فالجاحظ اعتمد هذا الفن في كتابه " البخلاء " اعتمادا أساسيا ، وناقش من خلال الفكاهة مختلف الأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية ،وجميع ماكان يحيط بمجتمعه من ظلم أو اضطهاد أو غير ذلك من شؤون الحياة العامة [٦] . ورأى " ابن قتيبة " في الفكاهة عاملا من عوامل الاستمالة ولونا من ألوان الجمال في كتابه " عيون الأخبار" [٧] . ورأى صاحب العقد الفريد أن " الفكاهات والملح نزهة النفوس وربيع القلب ومرتع السمع ومجلب الراحة ومعدن السرور " [٨] . أما " أبو حيان التوحيدي " فيرى أن الفكاهة - كما هي - وسيلة للضحك والسرور ،فهي وسيلة للنشاط واعداد النفس للتلقي والاستيعاب فالبدن إذا كلّ ،طلب الراحة ،والنفس اذا ملّتْ ،طلبت الروح [٩] . أما " النويري " فيذهب الى أن هذا الفن يعيد النفوس المرهقة الى العمل الجد بنشطة جديدة وراحة في طلب العلوم مديدة [١٠] .

ولما كان للفكاهة مثل هذه الوظائف والفوائد ، اقتضى ذلك أن يكون المتفكه أخلاقياً في قناع عالم ، يستخدم اللغة بكل مافيها من إيحاءات ،ليصل الى غرضه الإصلاحي فيعمد الى المقارنات والموازنات والمقابلات ويعمد الى الرسم الهزلي ،بتحليله الخاطف للعناصر المكونة للشخصية واستخراج الناحية الشاذة موضع الاستغراب أو السخر ، ويقيم رسمه الضاحك على التأويل والمحاكمة ،ومن ثم ، فعمله يتصل بعلم النفس إلى حدٍ كبير .

ونظرا لما في هذا الفن من صعوبة احتاج الى دقة في الملاحظة ومهارة في عرض الأشياء ، وقدرة على سبر خفايا النفس الانسانية . فالفن ينطوي على منطق وذكاء وسرعة بديهة ، وحسن تخلص ، وبراعة في الرد ، وتحرر من العواطف الضعيفة ، وقدرة على التأمل ،ومنح الحماقات والسخافات والمتناقضات ابتسامةً رضيةً لاعبرة متحضرة ، وكبح جماح الغضب عند شهود لؤم الانسان أو معاناته . فالشاعر الساخر لايقصد الى الهزل في ذاته حين يرينا الهزل ، ويصوره لنا ، فهزله أبدا مبطن بالجد ،فهو يتناول المضحكات أحيانا ، ويمزج ويسخر ويركب الأشياء والناس بالهزل [١١] .

فالشاعر الذي يلجأ الى التهكم الاجتماعي محتاج الى بصيرةٍ بأحوال المجتمع ودرايةٍ بالمجتمعات الأخرى ، وملاحظةٍ ، وخيالٍ قادرٍ على الموازنة والمقارنة ،وقدرةٍ بيانيةٍ مواتيةٍ للسخرية ،فتهكمه صورة من

نظرته الى الحياة والى الأحياء ،واشعاع من مزاجه وتفكيره ، وهو في الوقت نفسه صورة للمجتمع الذي يتهكم به الشاعر الساخر (١٢) . فاذا فهمنا وظيفة السخر فهما حقيقيا تتضح لنا قيمته في الأدب ، فلا يعود مجرد نكتة أو مزاح ،بل يضحي " رد الانسان على معاكسة القدر وظلم الدهر وقسوة الطبيعة وعيوب المجتمع ونقائص الناس ونقائصه ، هو يسخر بهذه جميعا ،لايسبها ولا يحقد عليها ،ولايثور بها ،بل يتأملها بهدوء . ويبصر سخافتها ويبصر تناقضها ، بل يبصر تفاهتها وصغرها ، فيعلو عليها جميعا ،ويتحدث عنها بابتسامة هادئة ،جليلة مستخفة هازئة (١٣) " .

وقد أدرك بعض الشعراء العرب قيمة السخر وتأثيره ، فاستخدموه هازئين بالأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية وبالتقاليد والأعراف على اختلاف العصور والموضوعات ، فمثل بعضهم الطبقة الكادحة وما كانت عليه من شقاء وبؤس . وصور آخرون رفاهية الخلفاء والأمراء وذوي الجاه ومن لحق بهم من مغنين وشعراء ،وكأنهم كانوا بذلك ،ينقلون صورة البذخ المترف لهذه الطبقة ،في حين يرزح غيرها تحت أثقال الجوع والحرمان .

ولعل ابن الرومي كان أكثر شعراء العرب المطبوعين في فنه الساخر لونا وشكلا ومعنى وحركة . فقد كان مطبوعا على التصوير الهزلي والعبث بالأشكال المضحكة والمناظر الفكاهية ، مما جعل منه ظاهرة فريدة في الشعر العربي .

فما العوامل التي ساهمت في تشكيل شخصيته الساخرة ؟ وما الاتجاهات الساخرة التي طبعت فنه ، فأفردته بين غيره من شعراء السخرية ؟ وهل كان في ذلك يشكل مذهبا ، له أبعاده في الشعر العربي .

اجتمع لابن الرومي من عناصر السخر مالم يجتمع لأحد في عصره ، فقدتوفرت لديه دقة الملاحظة والاحساس وعمق الشعور بالمناقضات في نفسه وفي زمنه ، وسعة النظر الى الفوارق ،وسماحة العطف التي تقابل مرارة العصبية (١٤) . فهو شاعر الطبيعة في الأدب العربي ،وشاعر الهجاء الساخر ،وشاعر الحياة اليومية في عصره ، وشاعر الأوهام والأشباح ، وشاعر المزاج المتقلب(١٥) . ويبدو أن ذلك يرجع – في معظمه – الى أنه أتيح له أن يتزود بثقافة واسعة ومكثفة لغة ونحوا وأدبا وعلوما أصيلة وأخرى دخيلة ،وفلسفة وما يتصل بها من أساطير وخرافات وحكايات(١٦) . واختلف الى حلقات العلماء في المساجد ،فاستمع الى الرواة والمحدثين الكبار ، واستفاد من دار الحكمة التي اكتظت بكتب الفلسفة وعلوم الأوائل . وقد أكسبه هذا الاطلاع قدرة على التحكم باللغة ومعرفة أسرارها وايحاءاتها ،كما أنه مكنه من الاستقلالية في المذهب الشعري ،ومن أن يصوغ تجاربه في صورة موضوعات وألوان من الحوار ، وفي طرق من التعبير ، ينفرد بها بين شعراء العربية (١٧) . كما عمق هذا الاطلاع احساسه بذاته ، وتعظيمه لقدر نفسه ، فاعتز بمواهبه الفنية وذكائه وسعة علومه ،واعتد بكلامه اعتدادا متطرفا (١٨) .

ويرى العقاد أن عدم انتمائه لعصبية معينة ،ساهم في استخفافه وسخريته (١٩) ولاشك أن عدم الانتماء لعصبية معينة ، يمنح الفكر حرية في الحركة والاتجاه ، ويبعده عن التحيز والغلو في الجد والمرارة ، ويفتح النفس على مصراعيها ، لتتناول ما تشاء ، وتتحدث كيف تشاء دون عوائق أو قيود أو وجل .

واذا كان للمظهر من تأثير على الاتجاه الساخر ، فان مظهر ابن الرومي كان يؤصل لديه هذا المنحى . فقد كان أصلع قصير اللحية كثها . اعتل جسمه مبكرا ، وانهارت بنيته ، ووهنت قواه ، وضعف بصره [٢٠] واختلجت مشيته [٢١] . وقد كان يحس بقبحه احساسا شديدا ، وردد هذا في صراحة ودون مواربة في أكثر من موضع في شعره [٢٢] . ولا شك أن قدرته على استنباط ذاته ، وتمحيص نفسه ، ومعرفة مواضع النقص لديه ، منحته قدرة على تمحيص الآخرين واستقراء مايدور في نفوسهم .

وازداد احساسه بالألم والمرارة ، وهو يرى عبث الناس به بسبب صلعه أو مشيته أو أصله الرومي ، أو بسبب تطيره وكثرة المصائب المنهالة عليه . وزاد من هذه المرارة حسد الأصدقاء وتخليهم عنه ، على الرغم مما بذله من أجلهم لدى ذوي الشأن [٢٣] .

أما ظروفه الحياتية ، فكان كل ما فيها يبعث الحزن واليأس ، وهذان لهما أكبر الأثر في صقل النفوس ، وفي التأثير على نظرة الانسان للوجود وللاحياء . فقد فقد زوجتيه وأولاده وأباه وأمه وأخاه وأخته وأبناءه ، فاستقر في نفسه كثير من التشاؤم والنقمة [٢٤] .

وتعرضت داره لحريق أتى عليها وعلى ثروته [٢٥] . ومن ثم ، فلا غرابة أن كان أكثر الشعراء الذين شكوا الفقر والحرمان [٢٦] وأن كانت فكرة الموت الحقيقي أو الموت البطيء تراوده باستمرار وأن تتأصل لديه ظاهرة التشاؤم تأصلا غريبا ، فيرى في صفرة المشمش لونا من ألوان الموت [٢٧] . ويمدح الحقد ، ويرى فيه توأم الشكر في الفتى [٢٨] . ويرى في صرخة الطفل عند الولادة هلعا من صروف الحياة [٢٩] .

ونحا في تشاؤمه منحى غريبا ، ليصبح لونا من الوسواس أو التطير ، وأدى هذا الى أن يرى القبح في كل كائن وفي كل مكان . واشتد خوفه من الأسماء التي يعتبرها مجلبة للشؤم ، ومن المناظر القبيحة ، ومن الحيوانات المنزلية ، ومن الماء والريح والمطر والبرد والحرارة [٣٠] . وازدادت حساسيته تجاه القبح ، فاشمأزت نفسه من كل قبيح ، ورأى القبح مرادفا للموت [٣١] وهجاه أنّى وجده ، إن في الأخلاق ، أو في الأصوات المنكرة ، أو الوجوه المجدورة ، أو الوجوه الطويلة ، أو الأنوف الضخمة ، أو اللحى الغزيرة . واشمأز من رائحة الثوم ، وشكل الأحدب والأعور وثقيل الظل . وامتد تشاؤمه الى الطبيعة ، وما يتعلق بها ، فهجا العوسج والشجر الذي لايثمر . وأفرط في الطيرة ، وغالى بها ، واحتج لها ، وزعم أنها موجودة في الطباع قائمة فيها [٣٢] ولم يعد يرى أن هناك من يستحق المدح الصادق :

قيل لي : لم ذممت كل البرايا
وهجوت الأنام هجوا قبيحا ؟
قلت بهب أنني كذبت عليهم
فأروني من يستحق المديحا (٣٣)

وانعكست هذه الظاهرة على أخلاقه وتصرفاته . فبدا متناقضا مضطربا ، واختلف النقاد في هذا التناقض والاضطراب ، فأعادوه الى حساسيته المفرطة وقلة حيلته ، والى صدمات الخيبة وسوء الظن وعجزه عن التكيف على مقتضى الأحوال التي يعيش في ظلها [٣٤] وأعادوه الى النقص الذي كان يشعر به والى عجزه في اثبات ذاته [٣٥] . في حين رأى آخرون انه يمثل قلقه من المصير الانساني وضجره من

الناس ، وأن سخريته تشف عن الحرج والتبرم والشعور بالظلم الذي لاطاقة له باحتماله أو بانتقائه (٣٦).

ومهما قيل حول تشاؤمه وتطيره ،فلا شك أن هذه الظاهرة تعود الى أموركثيرة، منها ماهو كامن في شخصه ، ومنهاماهو كامن في المجتمع ، فما كان يحس به من تفوق واستعلاء ، وما كان يشعر به من عيوب ، وما كان يشاهده من آفات في مجتمعه ، خلقت لديه - وهو الانسان المرهف الحس - مزاجا مضطربا غير ثابت، لايكاد يستقر على شيء ، الا وينفر منه. وقد أعاد هو نفسه هذه الظاهرة الى سوء حظه واجحاف الأيام به ، ولا سيما وهو يرى نفسه - وهو صاحب القدرات والمواهب - لايكاد يحصل على لقمة العيش، في حين يرقى السفهاء من الشعراء أعلى المراتب (٣٧). وقد خلق تناقض الحياة في نفسه نوعا من اللامبالاة ، وأصّلَ لديه نظرة مستهترة ساخرة مشبعة بالحكمة النابغة من الشقاء والألم . ولعل هذا هو ما جعله ينغمس في اللذة ، ويغالي في حب الحياة ، ويسرف في النكتة ، وفي المعنى ، وفي الدرس ، وفي الطعام والشراب والشهوات (٣٨). ويتحسر على الشباب ، ويفر من الشيب حيثما نقرأ في ديوانه (٣٩). وقد نمى الشقاء الذي كان يشعر به تجاه نفسه وتجاه مجتمعه - كما سنرى - ملكة السخرية لديه ، فامتدت لتشمل الأفراد على اختلاف أهوائهم ومناصبهم ، والمجتمع على اختلاف طبقاته . وكأن سخريته تنفيس عن غيظ مكتوم ، أو صدى لاستهزائه بالأحداث التي مرت به ، وكأنه كان يتعالى على كوارث الدهر ومفارقاته ، أو كأن الاحساس الفاجع بالنهاية كان يلاحقه ويقض مضجعه (٤٠) ،وقد ظلت هذه السخرية تلاحقه ، حتى وهو في لحظات حياته الأخيرة (٤١).

(٣)

لو أمعنا النظر في الأدب العربي على اختلاف عصوره ، لوجدنا أن الجانب الساخر فيه ، كان في بعضه صدى للنظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي كانت تمر به الأمة ، والقرن الثالث - الذي عاش فيه الشاعر - كان عصر المتناقضات ، كان عصر لهو ولعب وشك ومجون ، وكان عصر انتقال من بداوة الى حضارة ، ومن سذاجة الى تعقيد ، ومن فطرة خالصة الى علم وفلسفة . وكان عصر امتزاج بين أمم مختلفة وشعوب متباينة ، فاضطربت الأخلاق والعادات والنظم ، وانهار بناء قديم ، وقام بناء جديد (٤٢). ولقد شهد فترة الاضطراب السياسي الذي عم الدولة ، وشهد عجز الخلفاء وتحكم الأتراك (٤٣)وإنتشار الثورات الداخلية وما نجم عنها من فقر فادح (٤٤). وكان لابن الرومي موقف واضح تجاه هذه الفتن والاضطرابات(٤٥). وقدر له أن يشهد ما نجم عن اضطرابات الأحوال السياسية والاقتصادية من فوارق طبقية ، حيث الطبقة الحاكمة ومن يتصل بها ، يتمتعون بالامتيازات والخيرات والثروات التي جمعوها بطرق غير شرعية ، وطبقة العامة المحرومة من لقمة العيش رغم حظها من الثقافة والعلم . وشهد ما ترتب على هذه الفوارق من لهو ومجون وانحلال خلقي وفقر وتخلف . وكان لابد وأن يظهر هناك لون أدبي ساخر ، يعبر عن المرارة التي يوحي بها العصر في تناقضاته وفوارقه وفواجعه وكوارثه وانتفاضاته، وكلها من النوع المضحك المبكي ، والتي يجد فيها الشعراء مجالا رحبا للحديث عن شؤونهم وشجونهم . وابن الرومي كان وليد الطبقة المحرومة ، وكان أكثر

الشعراء حسا وأقدرهم ادراكا للهـــوة التي تفصل بين الطبقات ، وما كان يعتمل في نفوس الفقراء ، حيث اختلت الموازين، فارتفع الأدنياء ، وهوى الشرفاء :

دهر علا قدر الوضيع بـــــه
وهوى الشريف يحطه شـــرفه (٤٦)

ووقف حائرا ساخرا أمام القضيـــة الأزلية التي عجز كبار الفلاسفة عـــن أن يجدوا لها تعليلا ، حيث يحرم الدهر من يستحق على الرغم من عمله وأدبـــه ، ويمنح من لايستحق على وضاعته وغبائـه وجهله . يقول :

حرمان ذي أدب ،وحظوة جاهـــل
أمران بينهما العقول تحيـــر
كم ذا التفكر في الزمان وانمـــا
تزداد فيه عمى اذا تتفكـــر
الأرذلون بغبطة وسعـــــادة
والأمجدون قلوبهم تتفطر (٤٧).

ويقول في سخرية مريرة :

أرى رجالا قد خولوا نعمـــــا
في خفة العلم كالعصافيـــــر
تبارك الله كيف يرزقهـــــم
لكنه رازق الخنازيـــــر (٤٨)

وتصل سخريته من ظلم المجتمع ومن قساوة الحظ حدا متطرفا :

عزت مطالب دنيا كـــل ذي أدب
وهان مطلب دنيا الأنوك الخـرق
تبارك العدل فيها حين يقسمهـــا
بين البرية قسما غير متفـق (٤٩)

ويصل الى يقين قائم على أن الدنيا طبعت على ظلم العارفين ومحابـــاة الأغنياء ، وكرر هذا المعنى في معـــارض شتى ، وسكن اليه ، ووجد فيه عزاءه (٥٠).

وكان ألمه يتضاعف وسخريته تزداد حدة مع تراكم فشله ونجاح من هم دونه علما ومعرفة . وتأصل في نفسه الاحساس بعدم التكافؤ الاجتماعي ، فنعى العدالـــة الاجتماعية في مجتمع لايأخذ بحـــق الجدارة ، بل بالاغتصاب الذي يقوم علـــى الحيلة والكذب ، حيث تنعكس الموازيـــن، فيرتفع الانسان بتنكره للفضائل ، ويقعي أصحاب الكفاءة في أسفل سافلين (٥١).

وآفة الآفات في نظره تكمن فـــي غباء المسؤولين وجهلهم وسوء أخلاقهم :

براذين ألهاها قديما شعيرها
عن الشعر تستوفي القضيم وتركب
وأعجب منهم جاهلون تعاقلوا
وكلهم عما يتمم أنكـــب
أغشاء مافيهم أديب علمتـــه
ولا قابل التأديب حين يؤدب (٥٢)

فأبو يعلى مع جهله يتولى الوزارة :

أضحى وزيرا أبو يعلى وحق له
بعد المشارط والمقراض والجلـــم
قد قال قوم وغاظتهم كتابتـه
لو شئت يارب ما علمت بالقلم (٥٣)

وابن بلبل يتولى الديوان رغـــم عجمته وجهله :

عجب الناس من أبي الصقـــر اذ ولـ
ـي بعد الاجارة الديوانـــا
ولعمري ما ذاك أعجب مـــن أن
كان علجا فصار من شيبانـــا
ان للجد كيمياء اذا مـــــا
مس كلباً أحاله انسانـــا (٥٤)

وأكثر ما يبعث السخرية في نظـره ملوك العصر الذين يتربعون على سدة الحكم، ويبيدهم الأمر والنهي ،ويدعون الأدب والشعر وهم في حقيقة الأمر ليس لديهم معرفـة بالأدب والشعر ، وشخصياتهم مضطربـة متناقضة ، يضعون أنفسهم في غيـر أماكنها :

قد بلينا في دهرنا بملـــوك
أدباء ـ علمتهم شـــعراء
ان أجدنا في مدحهم أنبونـــا
وهجوا شعرنا أشد هجـــاء

قد أقاموا نفوسهم لذوي المد
ح مقام الأنداد والنظراء (٥٥)

وفي جيمية ابن الرومي :

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج؟
طريقان شتى : مستقيم وأعوج (٥٦)

يتجرأ على الخلفاء ،فيصور في سخرية عجيبة طغيانهم وضلالهم واستهتارهم وضعفهم ، ويشرف على ضعة من مرقب عال ، يرفع اليه القارئ بقوة روحه وسمو نظرته ، ويهيج الاحساس الأدبي بالتمرد على الانعكاس الخلقي (٥٧).

ولعل فقدان ثقته بالخلفاء والأمراء ، وما لاحظه من سقوطهم السياسي والخلقي ، هو ما جعله قليل المدح لهم ، وليس ما ذهبوا اليه من عدم قدرته أو بسبب سوء طالعه في قصور الملوك وجبنه عن اقتحام أجوائهم واستهانتهم به لضآلة شخصه (٥٨) .

واذا ما سخط ابن الرمي على الحياة ، ونقم على العصر وأبنائه ، واضطغن على الزمن وصروفه ، وطفحت نفسه بالمرارة " فعذره من هذا التمرد عذر كل حساس مصقول النفس مثقف العقل ، تصطدم عنده الآراء والعقائد بمظاهر الحياة وواقع الحال ، وليس أقسى من أثر ذلك في النفس ولا أوجع "(٥٩). فاذا ما رأيناه يجأر الى الله بالشكوى من دهره ومن ناسه (٦٠)فقد كان في واقع الأمر يقيم مقابلة بين الواقع ، باعتبارمافيه من النقص ، بصورة الكمال باعتبارها أسمى الحالات التي ينبغي أن يكون عليها الواقع . واذا ما وجدناه يتردد على بلاط بعض الأمراء أحيانا ، ويرجو ، ويتوسل ، ويطلب المثوبة بإلحاح ، فما ذلك الا لأنه كان محروما من النعم التي يشتهيها ، ويزيد من ألمه وشقائه معرفته للحياة وتذوقه لها ، فعاش مشتت الفكر بين القلق والخيبة والمطل والحرمان ، وهي معيشة تهد القوى، وتنهك الفكر والجسد (٦١)وهو مع الحاحه ورجائه ، كان يشعر شعورا حادا في أن للشعراء حقا في أموال الأمراء والملوك ، فهم لايقدمون للشعراء صدقة ، بل جزءا بسيطا من حقوقهم ، مقابل مادة فكرهم التي صاغوها من أجلهم ، وأنفقوا أعمارهم في صناعتها :

للناس فيما يكلفون مغارم
عند الكرام لها قضاء ذمام
ومغارم الشعراء في أشعارهم
إنفاق أعمار وهجر منام (٦٢)

وهو يطلب النوال بقوة ، لأنه حق من حقوقه ، بل هو ينذر ، ويهدد ويتوعد الممدوحين اذا قبلوا المدح، وعقوا المادح :

لاتقبلن المدح ثم تعقّه
وتنام والشعراء غير نيام
واحذرْ معرّتهم اذا دانيتهم
فلهم أشد معرة العرام
واعلم بأنهم اذا لم ينصفوا
حكموا لأنفسهم على الحكام
وظلامة العادي عليهم تنقضي
وعقابهم يبقى على الأيام (٦٣).

ولنستمع الى سخريته المريرة فيمن يرفض إثابته :

ان كنت من جهل حقي غير معتذر
وكنت عن رد مدحي غير مثئب
فأُعطني ثمن الطرس الذي كتبت
فيه القصيدة أو كفارة الكذب (٦٤)

واذا كانت المثوبة حقا مكتسبا للشعراء في مال الأغنياء ، فلا ينبغي على الشعراء – والحال هذه – أن يتملقوا، فيهبطوا بشخصياتهم ، بل عليهم أن يعتزوا بفنهم ، فهم يمنحون شيئا دائما مقابل شيء مقطوع :

أنلت فكان المدح مني مثوبة
فنولت مقطوعا ونولت دائما (٦٥)

ونقمته وسخريته على الحكام والرؤساء لم تأتيا من فراغ ، بل من تجربة طويلة :

وكيف وقد جربت من طبقاتهم (٦٦)
تجاريب تدعوالنفس فيهم الى الزهد

ومن ثم اذا حال هؤلاء بين الانسان وطعامه وشرابه ، أصبح هجاؤهم واجبا وضرورة :

حرم الهجاء على امرئ الا امرأ
وقع الهجاء عليه من أضرابه
أو طالبا قوتا حماه قادر
ظلما حقوق طعامه وشرابه (٦٧).

وانطلاقا من العلاقة الحميمة التي كان يرى أنها يجب أن تسود بين الشعراء والممدوحين ، بنى شعره في المدح . فاذا ما أحس بأن هذه العلاقة مهددة ، وبأن الممدوحين لايقيمون وزنا ، ولا يرعون لهم حقا ، انقلب على ممدوحيه ساخرا هازئا ، طالبا منهم أن يردوا عليه مدائحه . وتأصلت في نفسه ظاهرة السخر في المديح . وأخذ يعتقد بأن الخلفاء وغيرهم من المسؤولين لايعطون من أجل المدح والثناء ، وانما خيفة الهجاء :

لا لأجل المديح بل خيفة الهجـ
ـو أخذنا جوائز الخلفاء (٦٨)

ويضحي ابن الرومي في هجائه وسخريته أكثر صدقا منه في مديحه :

يقولون لي : ألفاظ هجوك عندنا
الى القلب من ألفاظ مدحك أسبق
فقلت لهم : كذب مديحي فيكم
وهجوي لكم صدق وللصدق رونق (٦٩)

لقد وجد ابن الرومي في عصره كافة المتناقضات ، فهناك تفاوت في الطبقات على أساس من الثروة وعلى أساس من الجنس ، وهناك تسلط من الحكام الذين خضعوا وذلوا للترك ، ولم يعد لهم من هم الا ارضاء نزواتهم واشباع شهواتهم . وأحس بأن النفاق يستشري في الأمة ، وأن كرامة الانسان تهدر من أجل لقمة العيش ، وأن الناس لايقدرون الا من يملك ، فلم تستقم الأمور بين الفقراء والأغنياء . وفي خضم هذه الأمور انعدمت القيم والمثل ، وسيطرت المادة على كل شيء . وهذه التناقضات كانت تتآزر معا لتغذي روح ابن الرومي الساخرة ، وتغرس في نفسه سخرية ناقدة شامتة . فقد امتصت نفسه ما في عصره من تناقضات وفوارق ، وأخذت هذه النفس المجرحة تفيض بين حين وآخر ساخرة هازئة عابثة ، تنعي تحامق الدهر وغباء الأثرياء المترفين وعبث الأقدار التي تحرم المحرومين ، وتغدق على المتخمين . وهو في سخطه وضجره وشكواه كان يطبع أحاسيسه بسخرية مريرة تصور آلامه وآلام الضعفاء وأفراحه وأفراح الضعفاء ، وتنقل سلسلة من الانهزامات والترددات لفئة ضعيفة من الشعب في عصر لايرحم الضعفاء ، عصر شرس لايحيا فيه الا الأقوياء والمنافقون والدهاة وذوو الكيد . واذا كان ابن الرومي يفتقد لمثل هذه الوسائل ، فقد رزق احساسا حادا ساخرا ، مكنه من أن يصور مشاهداته ومسموعاته تصويرا حيا .

(٤)

كان ابن الرومي من أكثر الشعراء الذين انفعلوا تجاه مآسي الشعب ، فلم يترك فئة من الناس الا وتناولها في شعره ، وتحدث عما كان يراه من انحرافات محاولا تقويم الناس عن طريق السخرية ، مما يشاهده من تجاوزات وابتعاد

عن الطريق القويم . وكان أكثر مايقلقه هذا الخلل الذي يراه في البنية الاجتماعية ، فحاول جاهدا أن يقيم بناء خلقيا متماسكا عن طريق السخرية من الآفات الأخلاقية التي استشرت في المجتمع ، كالبخل والنهم والحقد واللؤم والغرور والضعة والهوان والغدر وذل الجار والحماقة والغظاظة وغلظة القول . و ذم رجال الشرطة والكتاب والتجار - وهي الفئات التي لها سلطة واسعة في المجتمع- الذين أثروا على حساب الفئات الفقيرة [٧٠] وفسر حقيقة الناس حين يتوارون خلف ستائر المال والجاه والمنصب . وسلط الضوء على المظاهر الخادعة التي يتخذها ذوو الشأن لخداع الناس . فاللحى العريضة لاتكسب صاحبها شخصية جديدة :

غضبت وظلت من سفه وطيش
تهزهز لحية في قدرفش
فما افترقت لمغضبك الثريا
ولا اجتمعت هناك بنات نعش [٧١]

والخضاب لايغير من هيئة الانسان [٧٢] ، والتصنع لم يكن يوما مضاهيا للطبع [٧٣] ، والتكبر لايصنع الرجال [٧٤] ، والأمور ليست بضخامة الأجسام [٧٥] .

وكان البخل ظاهرة شائعة في عصره ، ويبدو أنها أثر من آثار ازدهار الحياة الاقتصادية وتكالب الناس على الأموال ، وتهرب الطبقة القادرة عن الدفع لمن هو في حاجة [٧٦] . والحاح ابن الرومي على هذه الظاهرة يمثل منحى جديدا ، ففضح البخل والسخرية من البخلاء ، وهو في حد ذاته تقويم وتهذيب للنفوس ، ودعوة الى انتشال الضعفاء . وقد أعجب القدماء بأحاديثه الساخرة عن البخل والبخلاء ، واعتبروا بعضها من خاطر الجن [٧٧] . وقد استخدم في مهاجمة البخلاء المثل الساخر [٧٨] والقصص الساخر [٧٩] .

ويتصل بظاهرة البخل النابعة من الأحوال الاقتصادية ، ظاهرة اجتماعية خطيرة أخرى ، هي ظاهرة النفاق التي عمد اليها كثيرون لتحقيق مصالحهم ، فتملك النفاق انسان العصر :

ملك النفاق طباعه فتثعلبا
وأبى السماحة لؤمه فاستكلبا [٨٠]

وقد سخر ابن الرومي من طبقة الشعراء الذين جاروا الكبار في النفاق والمداهنة ، فوضعوا من أنفسهم ، ووضعوا من شعرهم [٨١] . كما سخر من العلاقات الانسانية التي سادها النفاق في عصره ، وقدم صورا ساخرة حية لمثل هذه العلاقات :

متشبث بعلائقي متخلص
طورا يماذقني ، وطورا يخلص
متخصص بالمجد الا أنه
بفساد ما يسعى له متخصص
حلو الصداقة مرها فصديقه
شرق بماء إخائه متغصص
يعدو على الأسد المسالم ظالما
ويهر كلب سفاهة فيبصبص [٨٢]

وكان لاستشراء ظاهرة النفاق في عصره أثره في أن يتجه اتجاها حادا للحديث عن انعدام الصداقات وفقدان المودة والوفاء ، وما يتركه ذلك من شقاء في النفس . ولعله في ذلك كان يضع ما يكاد يشبه النظرية في اختيار الأصدقاء داعيا الانسان الى التقليل منهم ما استطاع الى ذلك سبيلا [٨٣] .

وهو في حديثه عن ظاهرة النفاق الاجتماعي ، لايغفل أن يتحدث عما يلحق بالناس من غبن وظلم من فئة الحكام والمتحكمين بالثروات ، ويكرس قلمه الساخر ليجعل حياة المظلوم أفضل من حياة

الظالم ، فالأول يعيش مرتاح الضمير، في حين يرتع الثاني في مرتع وخيم من عذاب الضمير أو مناقشة النفس (٨٤).

كما أن سخريته امتدت بجرأة، فتناولت بعض الخلفاء و نظام الخلفاء في الوراثة وانعكاسات هذا النظام على المجتمع (٨٥) وامتدت سخريته بعد تناولها المجتمع والسياسة والاقتصاد ، لتشمل الزمن والحياة ، حيث لامكانة لمن يستحق. فالدنيا حظوظ ، ولا تقوم على البذل والجهد (٨٦). والزمن متقلب غادر، والانسان العاقل هو الذي لايغتر بالسعادة ، فيعتبرها دائمة (٨٧) وصاحب العقل الرزين هو الذي لايصبح عبدا لشهواته (٨٨) واذا منح الله مالا لعبد من عبيده وحرص عليه ، فلا أقل من أن يكون رده جميلا في تعامله مع من يحتاج (٨٩).

(٥)

تفشت السخرية والتهكم والاضحاك على الحركات والاستهزاء بالطباع في العصر العباسي . وارتبط ذلك بغيبة الأخلاق الحميدة والوازع الديني وضعف المسؤولية . وتغلغل هذا الفن الجديد في مطاعن نفسية وخلقية ، وكأنه يريد أن يظهر المجتمع العباسي من كل ما فيه من مثالب فردية (٩٠). ففتح شعراء السخرية العيون على عيوب اجتماعية ، ودعوا بطريق غير مباشر الى اصلاحها ، فكانوا قريبين الى نفوس الطبقات الشعبية أكثر من شعراء المديح والغزل والوصف والرثاء (٩١)، ومن هنا قد يصح أن نعتبرهم ممثلين لعصرهم تمثيلا صحيحا ، وان نتخذ منهم مقياسا للحكم على هذا العصر (٩٢). وتكمن عظمة ابن الرومي في كونه نقل الشعر نقلة كبيرة، فبعد أن كان حتى عهده تقليدا وتكسبا وهجاء أخلاقيا قلبه الى فن . لقد هرب من المجتمع المزيف الى الطبيعة واستماع الغناء ، والتهام أطايب المأكولات ، وهرب من البشاعة الى الجمال ، ومن صناعة ابن المعتز وبديعات مسلم الى التجربة المشبوبة والمعاناة الملتهبة بالحلم والخيال (٩٣).

سخر ابن الرومي من الشعراء والكتاب والمغنين والمغنيات ، وسخر ممن عابوا شعره ، وممن عبثوا بتطيره ، أو سخروا من هيئته ومشيته ، كما سخر من أصحاب الجاه والنفوذ . ولم تسلم الطبيعة والجماد من سخريته ، فسخر من العوسج الشائك والشجر الذي لايثمر (٩٤) وحتى من الورد (٩٥) وسخر ممن يذمون الحقد في أكثر من مكان (٩٦). وكان في شعره الساخر يعكس حياة المجتمع والعصر بكل جوانبها ، فكان أكثر الشعراء قربا من الواقعية وكأنه كان يرى أن فضيلة الشعر تكمن في دقته وقربه من الواقع ونسخه دون تأويل وهمي مثالي (٩٧). ولعل هذا الاتجاه نحو الواقع يبدو في سخريته من الذين أرادوا منه أن يقلد ابن المعتز ، فيخرج عن طبعه ، فابن المعتز ابن خليفة ولا يختلط الا بالأمراء والوزراء وذوي الثراء وما عونه الفضة وتفوح في بيته روائح العنبر ، في حين ابن الرومي يعاشر صانع الرقاق وقالي الزلابية ، تفوح من ثيابه رائحة الزيت ، وطعامه لايتعدى قوت يومه (٩٧). كما أنه في واقعيته التفت الى عيوبه الذاتية ، وأثار السخرية بنفسه ، وتأنق في مسخها ، وكأنه كان يلفت الأنظار الى صفات اجتماعية نبيلة ، ينبغي أن يتحلى بها المجتمع ، ورذائل أخرى حقيرة ينبغي أن تطهر منها المجتمعات (٩٨).

واذا كان ابن الرومي يتناول العيوب الخلقية فيتربص بنقائص الناس وعوراتهم ، يبالغ بها ويضخمها ، ويغلب الوصف والتحليل والجدل اللفظي واستقصاء

واستقصاء المعنى والتوليد ، فانما هو في حقيقة الأمر كان يكسب سخريته قيمة كبيرة ، بدت في خياله الواسع ووصوله الى معان جديدة بسبب هذا الاستقصاء (٩٩). ولم يكن عمله هذا ناجما عن كره أوحقد أو رغبة في العبث(١٠٠) أو تغطية لفشله الذريع في تحقيق ما يريده من المجتمع (١٠١). كما أننا لانستطيع أن نغفي النشوة والفيض في سخريته لاستخدامه الجدل والاحتجاج (١٠٢). فشعر ابن الرومي عامة ، وشعره الساخر خاصة ، كان يتجاوز أحاسيسه وانفعالاته الى تحليل مصير الانسان في الوجود. ومعانيه حوادث خارجية تعبر عن حالات نفسية داخلية ، ومن ثم ، فالشعر الساخر عنده هو وجه ايجابي في نفسيته ، هو مظهر من رؤيته للحياة والوجود ، وسواء أكان في سخريته يعبر عن تشاؤمه ازاء الحياة والأحياء أم عن اشراقة أمل وتفاؤل فانه في الحقيقة عرف عبث الحياة وتهالك الانسان عليها ، وعرف معنى البهجة والمرارة ، فعبر عن شؤون الناس والحياة تعبيرا ساخرا ، يعكس ما في نفسه من ألم ومن تفاؤل . وكان في شعره يحاول أن يكون قريبا من ذوق العامة وأدنى الى أن يصبح شاعرا شعبيا . ولعل هذا ما يفسر اهتمامه بوصف الحمالين والشوائين ، ووصف الثياب البالية ، كما يفسر اهتمامه بالزهاد والوعاظ ، وليس في حياته ما يصله بالوعظ والزهد ، وكأنما كان يتغنى مشاعر الشعب في وعظه وتصويره للزهاد (١٠٢). وقد كان في شعره القريب من ذوق العامة ناقدا لكثير من العادات والتقاليد والعيوب الاجتماعية في سخرية لاذعة ، تترك في النفس أثرا بعيدا. يقول ساخرا من الثقلاء :

وثقيل كأنه دين ،
تتقذاه طالعاً كل عين ،
حمّل الله أرضه ثقليها
وبواهُ علاوةَ الثقلين (١٠٣)

فيقدم صورة منفرة ، تبعث في النفس النفور والاشمئزاز .

كما يسخر من هؤلاء الذين يعتقدون أن المظهر الخارجي القائم على الملبس يمكن أن يغير من حكم الناس على الانسان :

طلع الرقيُّ في شاشيةٍ
وعليه سيفه والمِنْطَقَه
فبدا للناس منه منظرٌ
عجبٌ، سبحان ربٍ خلقه
ان أكن أبصرت شخصا مثله
فشبابي في الجوالي صَدَقَه (١٠٤)

أو من هذا الذي يطيل شعر مؤخر رأسه ليغطي به جلحته ، وكأنه بذلك يهرب من خيل الدهر أو جري الزمن :

يا أيها الهارب من دهره
أدركك الدهر على خيله
يسوق من نُفْرته طرةً
الى مدى يقصر عن ثَيْله
فوجهه يأخذ من رأسه
أخذ نهار الصيف من ليله
مثل الذي يرقع من جيبه
وَهْياً بما يأخذ من ذيله (١٠٥)

كما يسخر من هذه الفئة التي اكتفت بحسن المظهر عن العقل والأدب :

طول وعرض بلا عقل ولا أدب
فليس يحسن الا وهو مصلوب (١٠٦)

ويسخر من البخلاء الذين يلزمون لباسا معينا واحدا لا يغيرونه ، ويسلك في سخريته اسلوبا قصصيا حواريا (١٠٧). ولا ينسى أن يتخذ من نفسه مثالا لما حدث له مع البخلاء ، فيسخر بذلك الطيلسان

البالي الذي يلبسه والذي منحه اياه " ابن حرب "(١٠٨) وكأنه كان يريد بذلك أن يسخر من هذه الفئة من الناس التي فضلت المظهر المنفر - رغم ثرائها - على أن تبذل شيئا من المال من أجل حسن مظهرها .

ويقدم صورة ساخرة للرجل، يضفي على نفسه مظهرا غير مظهره، فيشمخ ويرتفع ، على الرغم من عيوبه وضآلة حجمه :

فلا قرنه في الجو حتى كأنه
الى النجم يرقى أو الى اللديعرج
على أنه جعدالبنان كُحَيِّلٌ
اذا ما مشى مستعجلا قيل يَدْرَج (٢١)

وفي اطار حملته على المظاهر الخادعة سخر سخرية مريرة من أصحاب اللحى ، ورأى في اللحية عنوانا للغباء ونقصان العقل ، بل هو يدعو الى قتل أصحابها شر قتلة أو نتف لحاهم شعرة شعرة (١١٠). وقد يكون ولعه بالسخرية من اللحى راجعا الى أنها كانت تتخذ ذريعة للخداع وقضاء المآرب ، وأن أعمال بعض أصحابها لاتتفق مع المظهر الذي يتظاهرون به ، وقد يكون مرد ذلك في مجمله سخطه على السلطة ، وأنه كان يرى في أصحاب اللحى صورة حية للذين يتربعون على سدة الحكم . ومن ثم فمشكلته مع اللحى قد تمثل مشكلته مع البلاهة والعقم والفراغ ، حيث تطغو الشكليات على السطح في حين ترسو جواهر الأشياء (١١١). وقد تمثل نقمة وسخطا على الفئات التي تسيطر وتفرض نفسها دون أن تمتلك مايؤهلها لذلك .

ويتصل بميدان الواقعية الذي لزمه ابن الرومي شعره الشعبي الساخر، والذي حاول فيه أن يقترب كثيرا من طبقة العامة ، وأن يهذب عن طريقه النفس بما يدخله عليها من سرور وفكاهة . ويدخل في هذا الاطار سخريته من الرجال الملح :

ياملعة لأبي حفص ممردة
كأن ساحتها مرآة فولاذ
ترن تحت الأكف الواقعات بها
حتى ترن لها أكناف بغداد (١١٢)

كما يدخل في هذا الاطار قصصه وأحاديثه الساخرة عن طرق الأكل في عصره (١١٣). وقد فطن ابن الرومي الى الفكرة الآلية التي يقوم عليها الضحك، فأوضاع الجسم الانساني وحركاته عندو مضحكة اذا ذكرنا هذا الجسم بآلة ميكانيكية (١١٤)، كما فطن الى أهمية المزج بين ملامح الوجه وحركات الجسم، لكي تتوافر عناصر الاضحاك ، وتستقيم الصورة ، فالعرب سخروا من المغني أو المغنية اذا كان قبيح الصوت ، وكانت سخريتهم تزداد اذا اجتمع قبح الصوت الى قبح الشكل . وقد ساهم ابن الرومي بالسخرية من أشكال هؤلاء المغنين، وكأنه كان يعتبر الصوت معبرا لفهم الوجود ولفهم الجمال ، يقول في مغنٍ :

وكأن جرذان المحلة كلها
في حلقه يقرضن خبزا يابسا (١١٥)

فيقدم صورة مشوهة منفرة ويكاد يسمعنا صوت المغني ، وهو يجتره اجترارا . ويقول في مغن جاحظ العينين :

تخاله أبدا من قبح منظره
مجاذباً وتراً أو بالعاً حجرا
كأنه ضفدع في لجة هرم
اذا شدا نغما أو كرر النظرا (١١٦)

. فينقل الينا الصوت والمشاهدة معا ، واذا هذا المغني قد جحظت عيناه كعيني ضفدع هرم في لجة يكرر النظر، ويغني وفمه في الماء. ويقول :

أبو سليمان لاترضى طريقته
لا في غناء ولا تعليم صبيان
له اذا جاوب الطنبور محتفلا
صوت بمصر وضرب في خراسان
عواء كلب على أوتار مِنْدَفَةٍ
في قبح قردٍ وفي استكبارهامان
وتحسب العين فكيه اذا اختلفا
عند التنغم فكي بغل طحان(١١٧).

فيقدم صورة تجمع الشكل والحركة والضعة والاستكبار ، وتعرض حقيقة الأشياء كما هي ، وتنقل التوهم الذي يراودالبعض، فيحسبون أنفسهم شيئا .

ويعمد ابن الرومي أحيانا الى خلق الصور الكاريكاتورية التي تختل فيها المقاييس . يقول :

وجوههم للورى عظات
لكن أقفاءهم طبول(١١٨).

فيقدم صورة مسخا ، ولا سيما في قفا الطبل الذي يمثل الترهل وترجح الأرداف وتدليلها في كل جهة . ويقول في وصف أحدب :

قصرت أخادعه وطال قذاله
فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة
وأحس ثانية لها فتجمعا(١١٩)

فيبرع في وصف الشكل والحركة " فصورة الرجل ، وهو يتهيأ لأن يصفع ، ثم يتجمع ليتقي الصفعة الثانية ، هي صورة الأحدب بنصها وفصها ، لايعوزها الاتفاق الحسي ، ولا الحركة المهينة ، ولا الهيأة الزرية ، ولا التأمل الطويل في ضم أجزاء الصورة بعضها الى بعض ، حتى يتفق التشبيه هذا الاتفاق "(١٢٠).

وربما عمد ابن الرومي الى الصور الكاريكاتورية باقامة حوار بين أعضاء المهجو ، فيركز على الأنف مثلا ، ويمنحه قوة العقل والشعور :

واذا نهضت كبا بوجـ
ـهك للجبين المُعْطِسُ
فالأنف منك لعُظْمِهِ
أبداً لرأسكَ يعكسُ
واذا جلست على الطري
ـق ولا أرى لك تجلس
قيل : السلام عليكما
فتجيب أنت ويخرس(١٢١)

(٦)

اذا كان ابن الرومي قد وظف السخرية في الجوانب اللاهية في الحياة ، فان هذه السخرية قد اتخذت لها مسارا في الأمور الجادة ، فوجدناها في ذم الزمن وتناقض الانسان في رؤيته للحياة (١٢٢) ووجدناها في نظرته التشاؤمية للحظة الميلاد (١٢٣) ، كما بدت واضحة في مراثيه ، ولا سيما في قصيدته في رثاء أهل البصرة لما نالهم من صاحب الزنج (١٢٤).

ويستشف من هذا مدى وعيه وادراكه بما للسخرية من أثر في النفس وبما لها من قدرة على التغيير . وقد رأى بعضهم أن مظهر عبقريته يعود الى قوة تأثير فنه الساخر (١٢٥) الذي نماه الى أبعد حد ، تسعفه في ذلك قدرة بارعة على استغلال العيوب الجسدية والمعنوية وتصويرها تصويرا مضحكا ، وحساسية مرهفة مكنته من التقاط أخفى التفاصيل ، وخيال مجنح أعانه على تقليب المعنى ظهرا على بطن ، حتى يميته ، ولا يترك فيه زيادة لمستزيد (١٢٦). ومن ثم جاءت صوره ومعانيه في السخرية مختلفة عن المعاني الكلاسيكية المرذولة ، لأنها وليدة تأمل عند شاعر يرى أن الشعر متعة في ذاته (١٢٧) ، فهو يتناول المعاني والصور ، يستغرق فيها ، وينقلها الى غير واقعها بحيث تصبح هذه المعاني والصور موطنا

للكثير من الرموز والدلالات ، فسخريته تقوم على ابراز العيوب الجسدية الخارجية من أجل ابراز العيوب النفسية الداخلية . ومن ثم فنحن لايمكن أن نفهمه من اسلوبه الخارجي ، بل من كل اسلوبه ؛ من ذاتيته وتكوينه الجسدي والنفسي الخاص ، من مزاجه وكيفية تذوقه للأشياء (١٢٨) . وهذا الفهم ينفي ماذهب اليه بعضهم من أن فنه الساخر قائم على العيان والمشاهدة ، وان المقصود منه تحقير المهجوين أو تسخيفهم (١٢٩) . فهو لم يكن شريرا ولا رديء النفس كما يبدو في شعره (١٣٠) ، وما ورد في شعره من تصوير هزلي وعبث بالأشكال المضحكة أمور طبع عليها ، وهي أدخل في التصوير منها في الهجاء ، فسخطه أساسه المودة والألفة لا القطيعة والنفرة (١٣١) . وأما كثرة بروز " الأنا " في شعره ، فمرده معرفته لقدر نفسه ومكانه من الفضل ، ولثقل ماكان يحس به من قيود محيطة به (١٣٢) . والأمثلة الساخرة التي يوردها تبعث في النفس شعورا يصعب جدا التعبير عنه ، هو مزيج من الرثاء للمتألم المجروح أو البخيل أو الدنيء أو السفيه أو الثقيل أو الشهواني . في أمثلته رثاء للانسانية جمعاء ، وفيها عزاء لنا نحن عن آلامنا ومصائبنا . فيها شعور بالاستهانة وشعور بالعلو والسمو (١٣٣) . وعظمة ابن الرومي تكمن في ايمانه غير المحدود بفنه وبقدرة هذا الفن على التغيير ، وان الشعر هو أحق ما في الحياة بالعناية والاكبار وقائله أولى الناس بأن توفر له أسباب الحياة . لقد كان يحمل حنينا عميقا للانسان ، ويحاول العبور الى دنياه ، فيهزم ، ولكنه لاييأس ، ويعاود الكرة مازجا الجد بالسخرية منتقيا من الموضوعات الجديدة ما يبعث على التأمل ، فيتحدث عن لاعب الشطرنج ، وداحي الرقاق ، وصانع الحلوى في حنين جارف الى الانسان ومعايشته . هزم الشاعر اجتماعيا وعجز عن ايجاد الانسان الذي يود في عالم الواقع ، فبحث عنه في عالم الفن والشعر ، عجز عن ايجاد توأم بينه وبين المجتمع للتضاد الرهيب بين المثال والمادية ، فهيض جناحه أمام جبروت الآخرين (١٣٤) ويصرخ :

مالي أسل من القراب وأغمد
لم لا أُجرِّدُ والسيوف تجرد
لم لا أجرب في الضرائب مرة
ـ ياللرجال ـ وانني لمهند (١٣٥)

فتذهب صرخته صدى في عصر المداهنة والنفاق . ويرتد الى نفسه يعيش غربة مثل ، ينكمش على نفسه فيكون انكماشه سببا في ميزته الفنية ، يمنحه القدرة على التحليل لما يجده في نفسه من انفعالات ، وما يعرضه لعقله من الأفكار ، وما يصوره له خياله من الشكوك والمخاوف . انعكف على نفسه يتأملها ، ولم ينجح في أن يوفق بين نفسه وبين المجتمع ، فكان اخفاقه سببا في علو شأنه ، ذلك أنه حين عجز عن أن يجعل شخصه ملائما للمجتمع ، حاول أن يجعل المجتمع ملائما له هو ، فسعى في تغييره ، وحاول اصلاحه ، وانتقد نظامه ، وسفه أراءه ، وحمل على مافيه من الظلم والعيوب الكثيرة سياسة أو اقتصادية أو دينية . وسواء أنجح في ذلك أم لم ينجح ، فقد قدم آراء جديدة . وأغلب الانقلابات الفكرية تحدث عادية على أيدي أمثال هؤلاء الناس من فلاسفة أو مفكرين أو فنانين أو شعراء (١٣٦) . لقد أحس الحياة بكل جارحة فيه ، وأدار عينيه فيها مقلباً متأملاً دون ملل أو كلل ، وتكونت لديه فكرة ، وهي ان لم تكن

مذهبا فلسفيا جامعا مفصل الحدود واضح المعالم ، فحسبنا أنها فكرة عن الحياة بخيرها وشرها وسعودها ونحوسها وقوانينها ومظاهرها ،وأفضى لنا بوقعها الذي لا مهرب منه ولا متحول عنه . والحياة لها أكثر من وجه واحد ومظهر واحد ، وليست صفحتها الغامضة السوداء التي يفتحها ابن الرومي بأقل فتنة أو أضل نصيبا من الصواب من صفحتها الواضحة البيضاء التي ينشرها الفلاسفة والعلماء (١٣٧) .

هوامش البحث

١- الفكاهة في الأدب ٢١٨
٢- سيكولوجية الفكاهة والضحك ٦٩
٣- الضحك ١٠
٤- الضحك ١١٠ وما بعدها وينظر سيكولوجية الفكاهة والضحك ٦٨
٥- الشعر العباسي ٨٧
٦- ينظر رأي الجاحظ في تأثير الفكاهة في مقدمة كتاب البخلاء ص ٥
٧- ينظر رأي ابن قتيبة في مقدمة كتابه عيون الأخبار
٨- العقد الفريد ٦ : ٣٧٩
٩- الامتاع والمؤانسة ١ /٢٢٧
١٠- نهاية الأرب ٤/أبواب المجون والنوادر والكاهات
١١- حصاد الهشيم ٦٢
١٢- الفكاهة في الأدب ٤٩٠
١٣- ثقافة الناقد الأدبي ٣٣٢
١٤- ابن الرومي ، حياته من شعره ١١٥
١٥- مقدمة ديوان ابن الرومي تحقيق حسين نصار ٥
١٦- وفيات الأعيان ٣ / ٣٥٨ رسالة الغفران ٤٧٦ ، مروج الذهب ٢/٤١ ٦ تاريخ بغداد ١٢ /٢٤ ٠
١٧- ابن الرومي حياته وشعره ٩١
١٨- الديوان ٢/٧٤٣ وينظر الديوان ١ /٥٧
١٩- ابن الرومي حياته من شعره ١١٤
٢٠- الديوان ١ /١٣٩ ، ٢/٥٧٤
٢١- الديوان ٤/١٤٣٨
٢٢- الديوان ٤/١٣٨٠ ، ٤/١٤٦٣ ، ٤/١٤٧٠
٢٣- الديوان ١/٨٦ ، ٢/٧٧٠
٢٤- الديوان ١/١٦٠ ، ٢٩١ ، ٦/١٥ ٢٥ ، ١/٢٤٤ ، ١ /٧٩
٢٥- الديوان ١/٥٦
٢٦- الديوان ١/٣٢٢
٢٧- الديوان ١/٣١٤
٢٨- الديوان ٤/١٣٨٠ ، ٣/١٠٣٢
٢٩- الديوان ٢/٥٨٦
٣٠- الديوان ١/٢١٤
٣١- الديوان ١/٩١
٣٢- زهر الآداب ٢/٥٢٦ ، ٥٣٤ ، رسالة الغفران ٤٧٨ ومعاهد التنصيص ١/١١٥ وديوانه ٢/٢٤٥٤ ٠
٣٣- الديوان ٢/٥٦٩
٣٤- حصاد الهشيم ٢٤٦ ، ٢٥٣ في الأدب العباسي ٢٧٠ ، تاريخ الأدب العربي ٢/٣٤١ ٠
٣٥- ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره ١٢٠ ، ٦٧
٣٦- ابن الرومي ، حياته من شعره ١٩٦ وينظر ابن الرومي ، ملامح وأبعاد ٣٥ ٠
٣٧- الديوان ٣/١١٩٧
٣٨- الديوان ٢/٥٤٩
٣٩- الديوان ٣/١١٩٩
٤٠- الديوان ١/٨٢ ، ١/٩٠
٤١- تاريخ بغداد ١/٢٥
٤٢- حديث الأربعاء ٢/٦٩ وينظر ابن الرومي ، لمحمد عبد الغني حسن ١٤ وابن الرومي لأحمد خالد ٢٠ ٠
٤٣- الفخري في الآداب السلطانية سنة ٢٥٢ ص ٢٢١ ٠
٤٤- تاريخ الطبري أحداث السنوات ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ المجلد التاسع ٠

٤٥- الديوان ٤٩٢/٤ ، ١٨٦٢/٥

٤٦- الديوان ١٥٧/٤ وينظر ٧٥٤/٢

٤٧- الديوان ١١٤٥/٣

٤٨- الديوان ١١٤٧/٣

٤٩- الديوان ١٦٩٩/٤

٥٠- الديوان ١٥٩٢/٤ ، ٢٨٢/١٠ ، ٢٧٩/١

٥١- الديوان ٢٧٩/١

٥٢- الديوان ١٥٦/١

٥٣- الديوان ٢٢٩٤/٦

٥٤- الديوان ٢٥٥٨/٦

٥٥- الديوان ٧٥/١ - ٧٦

٥٦- الديوان ٤٩٢/٢

٥٧- حصاد الهشيم ٢٦١

٥٨- ابن الرومي ، ملامح وأبعاد ١٦ وينظر ابن الرومي لخليل شرف الدين ٣٥ .

٥٩- حصاد الهشيم ٢٤٢

٦٠- الديوان ٢٢٦٤/٦

٦١- ابن الرومي ،حياته في شعره ١٥٥

٦٢- الديوان ٢٣٩٢/٦ ، وينظر ١٥٠/١ ، ١٥٥

٦٣- الديوان ٢٣٩٢/٦ ، ٢٣٩٣

٦٤- الديوان ٢٤٤/١

٦٥- الديوان ٢٣١٤/٦ ،وينظر ٩٧٥/٣ ، ٨١/١ ، ٠١/٤ ، ٠١٧ .

٦٦- الديوان ٦١٠/٢

٦٧- الديوان ٢٤٦/١ ، وينظر ٦٩٧/٢ و ٥٩/١ و ٢٣٨٢/٦ .

٦٨- الديوان ١٣٥/١

٦٩- الديوان ١٧١٢/٤

٧٠- الديوان ٢٧٩/١

٧١- الديوان ١٢٤٦/٣

٧٢- الديوان ١١٩٩/٣

٧٣- الديوان ٥١٧/٢

٧٤- الديوان ١٥٥٢/١

٧٥- الديوان ٢٠٥٧/٥

٧٦- ينظر الجاحظ حياته وآثاره ٢٤٨

٧٧- تاريخ بغداد ٢٥/١٢ ، وديوانه ٦٤١/٢

٧٨- الديوان ١٦٤٨/٤ ، ١٥٥٣/٤

٧٩- الديوان ١٦/١ ، ١٤٠٤/٤ ، ١٩٤٩/٥٠ .

٨٠- الديوان ٢٩٧/١

٨١- الديوان ٧٤/١ ، ٥١٦/٢

٨٢- الديوان ١٣٦/٤

٨٣- الديوان ٨٠٩/٢ وينظر ٢٣١/١ ، ٧٧٠/٢ ، ١٦٢٤/٤ ، ٢٠٨٠/٥ .

٨٤- الديوان ٢٢٥٥/٦

٨٥- الديوان ٣٣٨/١

٨٦- الديوان ١٧٨/١ وينظر ١٣/١ ، ١٠٢ ، ٢١٧

٨٧- الديوان ١١٩/١ ، ٢٢٧٨/٦

٨٨- الديوان ٢٣٧٣/٦

٨٩- الديوان ٦٥/١

٩٠- فصول في الشعر ونقده ٦١

٩١- الشعر العباسي ، ٨٦

٩٢- حديث الأربعاء ٣٦/٢

٩٣- ابن الرومي خليل شرف الدين ٧٠

٩٤- الديوان ٢٩٢/١

٩٥- الديوان ١٤٥٢/٤

٩٦- الديوان ١٨٧/١ ، ١٠٣٢/٣ ، ١٣٧٩/٤٠

٩٧- معاهد التنصيص ١٠٨/١

٩٨- الشعر العباسي ، ٨٦

٩٩- ديوان المعاني ٢٠٦/١

١٠٠- ابن الرومي ملامح وأبعاد ٣٦

١٠١- ابن الرومي شاعر الحس والعاطفة والخيال ، نازك سابا يارد ٩٤ وينظر ابن الرومي ، خليل شرف الدين ٧١ .

١٠٢- العصر العباسي الثاني ٣٢٣

١٠٣- الديوان ٢٥٥٧/٦

١٠٤- الديوان ١٦٧٧/٤ وشاشية طربوش

١٠٥- الديوان ١٩٣١/٥ - ١٩٣٢

١٠٦- ديوان ابن الرومي تصنيف كامل الكيلاني ٤٧/١

١٠٧- الديوان ٧٢٨/٢

١٠٨ – الديوان ١/ ٢٠٥ ، ١/ ٢٣٠
١٠٩ – الديوان ٢/ ٤٨١
١١٠ – الديوان ١/ ٣٨٦ ، ٣/ ٩٤٨، ١٢/ ١٠ ١٠٠/٥ ١٠ /١٥٥
١١١ – ابن الرومي ، فنه ونفسيته من خلال شعره ١٢١ .
١١٢ – الديوان ٢/ ٨١٥ ، وينظر ديوانه ٧٢٦/٢
١١٣ – الديوان ٤/ ١٤٤٥
١١٤ – الضحك ٢٦
١١٥ – الديوان ٣/ ١٢٤
١١٦ – الديوان ٣/ ٩٦٨
١١٧ – الديوان ٦/ ٢٥٤٨
١١٨ – الديوان ٥/ ٢٠٠٤
١١٩ – ديوان ابن الرومي ، تصنيف كامل الكيلاني ١/ ١٤٦ .
١٢٠ – ابن الرومي ، حياته من شعره ١١٦
١٢١ – الديوان ٣/ ١١٩٥ وينظر حوار طويل حول أنف عمرو ٣/ ٩٦٤

١٢٢ – الديوان ٦/ ٢٥١٧
١٢٣ – الديوان ٤/ ١٥٥١
١٢٤ – الديوان ٦/ ٢٣٧٧
١٢٥ – ابن الرومي ، حياته من شعره ١١٦ .
١٢٦ – العمدة ٢/ ٢٣٨
١٢٧ – ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره ١٢٢
١٢٨ – ابن الرومي – خليل شرف الدين ٩٥
١٢٩ – ابن الرومي ، حياته وشعره ٦٦
١٣٠ – الديوان ١/ ٢١٢ ، ٦/ ٢٥٥٩
١٣١ – ابن الرومي ، حياته من شعره ١٩٣ وما بعدها
١٣٢ – حصاد الهشيم ٢٤٤
١٣٣ – ثقافة الناقد الأدبي ٣٣٥
١٣٤ – ابن الرومي ،خليل شرف الدين ١١١
١٣٥ – الديوان ٢/ ٧٤٨
١٣٦ – ثقافة الناقد الأدبي ٢٧٩
١٣٧ – حصاد الهشيم ٢٧١

– ابن الرومي – أحمد خالد – الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٧ م
– ابن الرومي – خليل شرف الدين دار مكتبة الهلال – بيروت ١٩٨٢م
– ابن الرومي – محمد عبد الغني حسن – دار المعارف بمصر ١٩٥٥م
– ابن الرومي ، حياته من شعره عباس محمود العقاد – المكتبة التجارية بمصر ١٩٧٠ م
– ابن الرومي ، حياته وشعره روفون جست – ترجمة د. حسين نصار – دار الثقافة – بيروت .
– ابن الرومي – شاعر الحس والعاطفة والخيال – نازك سابا يارد – بيت الحكمة – بيروت ١٩٦٦م .
– ابن الرومي ، فنه ونفسيته من خلال شعره – ايليا حاوي – دار الكتاب اللبناني ١٩٨٠ م
– ابن الرومي ، ملامح وأبعاد علي شلق – بيروت ١٩٦٩ .
– الامتاع والمؤانسة – التوحيدي (أبو حيان علي بن محمد) تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين – دار مكتبة الحياة – بيروت –
– البخلاء – الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) – تحقيق طه الحاجري – دار المعارف بمصر ١٩٧١ م
– تاريخ الأدب العربي في الأعصر العباسية – عمر فروخ – دار العلم للملايين – بيروت ١٩٨١٠

- تاريخ بغداد ـ البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي) ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت .
- تاريخ الطبري ـ الطبري (أبو جعفر محمد بن حرير) ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م
- ثقافة الناقد الأدبي ـ محمد النويهي مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٩٦٠ م
- الجاحظ ، حياته وآثاره ـ طه الحاجري ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٢م
- حديث الأربعاء ـ طه حسين ـ دار المعارف بمصر ١٩٧٦ م
- حصاد الهشيم ـ ابراهيم عبد القادر المازني ـ المطبعة العصرية ـ القاهرة ١٩٧١ م
- ديوان ابن الرومي ـ ابن الرومي (أبو الحسن علي بن العباس) تحقيق د. حسين نصار ـ مطبعة دار الكتب القاهرة ج١ـ ج ٦ ١٩٧٣-١٩٨١ م
- ديوان ابن الرومي ـ تصنيف كامل الكيلاني ـ مطبعة التوفيق الأدبية القاهرة ١٩٢٤ م
- ديوان المعاني ـ العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله) مكتبة القدس ١٣٥٢ هـ .
- رسالة الغفران ـ المعري (أبو العلاء احمد بن عبد الله ـ تحقيق عائشة عبد الرحمن ـ دار المعارف بمصر١٩٧٧م
- زهر الآداب وثمر الألباب ـ الحصري (ابو اسحق ابراهيم بن علي)تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٢ .
- سيكولوجية الفكاهة والضحك ـ زكريا أبراهيم ـ دار مصر للطباعة .
- الشعر العباسي ، التيار الشعبي سعد اسماعيل شلبي ـ دار غريب القاهرة ١٩٨٧ م
- الضحك ، بحث في دلالة المضحك هنري برجسون ـ ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم دار اليقظة العربية ١٩٢٤ م.
- العصر العباسي الثاني ـ شوقي ضيف دار المعارف بمصر ١٩٧٣ م
- العقد الفريد ـ ابن عبد ربه (ابو عمر أحمد بن محمد ـ تحقيق أحمد أمين والزين والأبياري مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٥ .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ـ ابن رشيق القيرواني ابو علي الحسن ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٣ .
- عيون الأخبار ـ ابن قتيبة (ابو محمد عبد الله بن مسلم ـ المؤسسة المصرية العامة ـ القاهرة ١٩٦٣ م .
- الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ـ ابن طباطبا (محمد بن علي) ـ دار بيروت ١٩٦٦ م
- فصول في الشعر ونقده ـ شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر ١٩٧١م
- الفكاهة في الأدب العربي ـ أحمد محمد الحوفي ـ دار نهضة مصر القاهرة ١٩٦٦
- في الأدب العباسي ـ محمد مهدي البصير ـ مطبعة النعمان ، النجف ١٩٧٠م
- مروج الذهب ـ المسعودي (ابو الحسن علي بن الحسين) دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٨٢ م
- معاهد التنصيص ـ العباسي (عبد الرحيم بن أحمد ـ عالم الكتب بيروت .

- نهاية الأرب في فنون الأدب - النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) - الموسّسة المصرية العامة القاهرة (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب .

- وفيات الأعيان - ابن خلكان (ابو العباس شمس الدين أحمد تحقيق احسان عباس) - دار صادر بيروت ١٩٧٨ .